تفسير سورة الشورى كاملة

سُورَةُ الشُّورَى

رامي حنفي محمود

شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا الكتاب منشور في

سلسلة كيف نفهم القرآن؟ (*)

1. الربع الأول من سورة الشورى

– الآية 1، والآية 2: (حم) (عسق): سَبَقَ الكلام على الحروف المُقطَّعة في أول سورة البقرة، واعلم أنّ هذه الحروف تُقرأ هكذا: (حا ميم) (عَيْن سِين قاف).

– الآية 3، والآية 4، والآية 5: (كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ): يعني كما أنزل الله إليك هذا القرآن – أيها الرسول –، فكذلك أنزل الكُتُب على الأنبياء من قبلك، وهو سبحانه (الْعَزِيزُ) الذي لا يَمنعه شيءٌ من فعل ما يريد، (الْحَكِيمُ) الذي يضع الأمور في مواضعها (ولذلك اختارك أيها الرسول لتبليغ رسالته دونَ غيرك)، وهو الذي (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) مُلكًا وتدبيرًا وتصرُّفاً وإحاطة، فيَفعل ما يشاء ويَحكم ما يريد، (وَهُوَ الْعَلِيُّ) بذاته وقدْره وقهره، (الْعَظِيمُ) الذي خضعتْ له أعظم المخلوقات، إذ (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ): أي لقد قاربَت السماوات أن يتشقَّقْنَ، كل واحدة فوق التي تحتها؛ وذلك من عظمة ربهم وجلاله (وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ): أي يُسَبِّحونَ اللهَ تعالى تسبيحاً مَقرونًا بالثناء والحمد، ويُنَزِّهونه عما لا يليق به، قائلين: (سبحان الله وبحمده)، (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ): أي يطلبون من ربهم أن يغفر ذنوب المؤمنين من أهل الأرض، لأنّ الله تعالى قال في سورة غافر: (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا)، (أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ) لذنوب التائبين إليه بصدق, (الرَّحِيمُ) بهم، فلا يُعذبهم بذنبٍ تابوا منه.

– الآية 6: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) أي اتّخذوا آلهةً باطلة – يَرجونَ نَصْرها من دون الله تعالى – (اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ): أي يحفظ عليهم أفعالهم؛ ليجازيهم بها يوم القيامة، (وَمَا أَنْتَ) أيها الرسول (عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ): أي لستَ مُوَكّلاً بحفظ أعمالهم, ولستَ مُكَلَّفاً بحسابهم، وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، وليس عليك شيءٌ من المسئولية بعد البلاغ.

– الآية 7: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) أي بلُغة عربية واضحة المعنى، في غاية الفصاحة والبلاغة (لِتُنْذِرَ) به (أُمَّ الْقُرَى) وهي "مكة" (وَمَنْ حَوْلَهَا) من سائر الناس، (وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ): أي تخوّفهم عذابَ يوم الجمع، وهو يوم القيامة, الذي (لَا رَيْبَ فِيهِ) أي لا شك في مَجيئه، والذي يكونُ الناسُ فيه فريقَين: (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ) وهم الذين آمنوا بالله تعالى واتّبعوا رُسُله، (وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) أي في النار الموقدة, وهم الذين كفروا بتوحيد ربهم وخالفوا رُسُله.

– الآية 8: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) أي لَجَعَلَ الناس كلهم جماعةً واحدة على دينٍ واحد وهو الإسلام، (وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ) يعني: ولكنه سبحانه أراد أن يُدخل في رحمته مَن يشاء (ممَّن عَلِمَ أنه يُفَضِّل الهدى على الضلال، والآخرة على الدنيا)، (وَالظَّالِمُونَ) لأنفسهم بالشرك والمعاصي (مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ) يتولى أمورهم يوم القيامة، (وَلَا نَصِيرٍ) يُنقذهم من عذاب ربهم.

– الآية 9: (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ): يعني بل اتخذ هؤلاء المُشركون آلهةً يعبدونها ويرجون نصرها لهم من دون الله، كلا، لن ينفعوهم بشيء، (فَاللَّهُ) وحده (هُوَ الْوَلِيُّ) الذي يتولاه عبادُهُ المؤمنون بمحبته وطاعته ونُصرة دينه، وهو يتولَّاهم بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وبنَصرهم على أعدائهم، وإعانتهم في جميع أمورهم (فهو سبحانه الولي الحق، وأما غيره فلا تنفع ولايته ولا تضر)، (وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى) من قبورهم يوم القيامة (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) لا يُعجزه شيء.

- الآية 10، والآية 11، والآية 12: (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ) يعني: وأيُّ شيءٍ تختلفون فيه أيها الناس من أمور دينكم: (فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) أي: فأَرجِعوا الحُكم فيه إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الله تعالى قال في سوة النساء: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)، (ذَلِكُمُ) أي الحاكم العدل العظيم هو (اللَّهُ رَبِّي) (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ): يعني عليه وحده اعتمدتُ ووثَقت، (وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) يعني: وإليه أرجع في كل شؤوني، وكيف لا أعتمد عليه؟! وهو سبحانه (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ): أي خالقهما ومُبدعهما بقدرته ومشيئته وحكمته, وقد (جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) – أي من نفس نوعكم – (أَزْوَاجًا) أي زوجات لتستريح نفوسكم معهنّ، (وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا) (ذكورًا وإناثًا), (يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ): أي يخلقكم في هذا النظام (نظام الذكر والأنثى)، ويُكَثِّركم بسبب هذا التناسل، وهو سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) أي لا يُشبهه شيءٌ من مخلوقاته (لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله)، (وإننا نُثبت له الصفات التي أثبتها سبحانه لنفسه، والتي أثبتها له رسوله رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، من غير تشبيه لهذه الصفات بصفات مخلوقاته)، (وَهُوَ السَّمِيعُ) لكل الأصوات (الْبَصِيرُ) بكل الكائنات، الذي (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ): أي له مفاتيح خزائن السماوات والأرض، يعطي خَلْقَه منها ما يشاء، فـ (يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ): أي يوسِّع الرزق لِمَن يشاء من عباده (وَيَقْدِرُ) يعني: ويُضيِّقه على مَن يشاء منهم, (وذلك بحسب حِكْمته البالغة؛ إذ هو سبحانه الأعلمُ بما يُصلِح عباده من الفقر والغنى)، (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) لا يخفى عليه شيء من أمور خلقه.

****

2. الربع الثاني من سورة الشورى

– الآية 13: (شَرَعَ) سبحانه (لَكُمْ) أيها الناس (مِنَ الدِّينِ) – على لسان نَبيِّه محمد – (مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا) أن يُبلّغه، (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) يعني: وهو نفس الشيء الذي وَصَّيناك أيها الرسول أن تبلّغه للناس (وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ) يعني: وهو نفس الشيء الذي وَصَّينا به إبراهيم (وَمُوسَى وَعِيسَى)، ثم وَضَّح سبحانه هذا الشيء الذي وَصَّاهم به قائلاً: (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ) (وذلك بعبادته وحده وطاعته واجتناب معصيته)، (وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) أي لا تختلفوا في الدين الذي أمَرتُكم به, وهو الإسلام (الذي هو الاستسلام والانقياد لأوامر الله تعالى، وعبادته بما شَرَع)، ولكنْ (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ): يعني ثَقُلَ على المُشركين ما تدعوهم إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له (لأن ذلك لا يوافق أهواءهم الفاسدة وشهواتهم الرخيصة), فلا تحزن أيها الرسول على كِبرهم وعنادهم، فـ (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ): أي يختار لتوحيده مَن يشاء من خلقه (ممَّن لا يُصِرُّون على الباطل)، (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) أي يُوفِّق للعمل بطاعته مَن يرجع إليه بالتوبة والدعاء (فيَطلب منه الهداية بصدق، ويَسعى في تحصيل أسبابها، بخلاف المُعرِضين المُستكبرين)، (واعلم أن هؤلاء الأنبياء المذكورين هم أولو العَزم من الرُسُل، وذلك على المشهور من أقوال العلماء).

– الآية 14: (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ) أي: ما تفرَّق العرب واليهود والنصارى في دين الله تعالى – فآمَنَ به بعضهم وكَفَرَ الآخرون – إلا من بعدما جاءهم العلم الصحيح الذي يَحمله القرآن، وقامت عليهم الحُجَّة ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام, وذلك (بَغْيًا بَيْنَهُمْ): يعني ما دفعهم إلى الكفر والتفرق إلا الظلم والحسد وطلب الدنيا, (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ) بتأخير العذاب عن الكافرين (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) يعني إلى وقت معلوم (وهو يوم القيامة) (لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) أي: لَحكَمَ اللهُ بين هؤلاء المتفرقين (بإهلاك الكافرين منهم وإنجاء المؤمنين)، (وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ) وهُم الذين بَلَّغهم الرسولُ القرآن (وهم اليهود والنصارى ومُشركو العرب) (مِنْ بَعْدِهِمْ) أي: من بعد الأوّلين (وهُم أتباع الرُسُل المذكورين في الآية السابقة)، فهذه الفِرَق المُعاصِرة للنبي صلى الله عليه وسلم (لَفِي شَكٍّ مِنْهُ) أي من الدين (مُرِيبٍ) أي مُوقِعٍ في الحَيْرة والاختلاف المذموم.

– الآية 15: (فَلِذَلِكَ فَادْعُ) يعني: فإلى ذلك الدين المستقيم – الذي شرعه الله للأنبياء ووصَّاهم به –: فادعُ أيها الرسول عباد الله, (وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) يعني كما أمَرَك ربك، (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ): أي لا تتبع أهواء الذين شكُّوا في الحق وانحرفوا عن الدين, ولا تُطِع شيئاً من اقتراحاتهم، (وَقُلْ) لهم: (آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ): يعني صدَّقت بجميع الكُتُب المُنزَّلة على الأنبياء (وَأُمِرْتُ) أي أمَرَني ربي (لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ) في الحُكم, (اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ) (لَنَا أَعْمَالُنَا): يعني لنا ثواب أعمالنا الصالحة, (وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) يعني: ولكم جزاء أعمالكم السيئة, (لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ): أي لا جدال بيننا وبينكم بعد أن ظَهَرَ الحق, (اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا) يوم القيامة, ثم يقضي بيننا فيما اختلفنا فيه (وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) يعني إليه المَرجع بعد الموت, فيُجازي كُلاً بما يَستحق.

- الآية 16: (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ) يعني: والذين يجادلون في دين الله (الذي أرسل به محمدًا صلى الله عليه وسلم) (مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ) يعني من بعد ما استجابَ الناس له وأسلَموا, أولئك (حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ) أي حُجَّتهم ومجادلتهم باطلةٌ (عِنْدَ رَبِّهِمْ) (وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ) من الله في الدنيا, (وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) في نار جهنم.

- الآية 17، والآية 18: (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) أي أنزل القرآن - وسائر الكُتُب المُنَزَّلة - بالحق الذي اشتملت عليه، (وَالْمِيزَانَ) يعني: وأنزل الله الميزان - وهو العدل - ليُحكَم به بين الناس، (ولَعَلّ المقصود من الميزان أنه الآلة التي يُوزَن بها، إذ بها يتم العدل، قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)، ولَعَلّ المقصود من إنزال الميزان: أنّ الله ألهَمَ الناس أن يصنعوه ويعملوا به، واللهُ أعلم).

♦ وقد جَعَلَ الله جزاء العادلين وجزاء الظالمين، في يوم القيامة الذي لا شَكَّ فيه، (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) أي لَعَلّ زمان الساعة - التي تقوم فيها القيامة - يكون قريباً، فإنّ كل آتٍ قريب، (يَسْتَعْجِلُ بِهَا) أي يستعجل بمجيء الساعة: (الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا) تكذيباً واستهزاءً، (وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا) أي خائفونَ من قيامها (وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ) (أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ): يعني إن الذين يجادلون في قيام الساعة (لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) عن الحق (لوضوح الأدلة على قدرة الله تعالى على البعث).

♦ ورغم أنّ لَفْظ "الساعة" مؤنث، إلا إنه تعالى ذَكَرَ معها لفظ "قريب"، ولم يَقُل "قريبة"، وذلك لأن الساعة ليست مؤنثاً حقيقياً، بل هي مؤنث مَجازي (يعني ممّا لا يَبيض ولا يَلد)، فلذلك يجوز أن تأتي مع لفظَي: (قريب) و(قريبة)، وهذا مِثل قوله تعالى: (إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ).

- الآية 19: (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ) (مؤمنهم وكافرهم، طائعهم وعاصيهم)، بدليل أنهم يعصونه وهو يرزقهم ولا يُعَجِّل لهم العقوبة، وهو سبحانه لطيفٌ بهم في تدبير أرزاقهم، إذ (يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ): أي يُوسِّع الرزق لمَن يشاء, ويضيِّقه على مَن يشاء (وَفْقَ حكمته سبحانه وعلمه بما يُصلحهم) (وَهُوَ الْقَوِيُّ) الذي لا يَغلبه أحد, (الْعَزِيزُ) في انتقامه ممَّن أراد الانتقام منه (إذاً فلا يَخدعكم حلمه، فإنّ بَطْشه شديد وعذابه أليم، ألاَ، فسارِعوا بالتوبة).

- الآية 20: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ) يعني: مَن كان يريد بعمله ثواب الآخرة: (نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ): أي نَزِد له في عمله الصالح (بأنْ نُضاعف له ثواب الحسنة إلى عَشر أمثالها إلى ما شاء الله من الزيادة), (وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا) يعني: ومَن كان يريد بعمله الدنيا وحدها - كالمُرائين الذين يريدون بأعمالهم الثناء من الناس -: (نُؤْتِهِ مِنْهَا) ما قسَمناه له, (وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ): أي ليس له في الآخرة شيءٌ من الثواب.

- الآية 21: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ)؟! يعني: بل لهم شركاء من الشياطين قد شَرَعوا لهم من الدين ما لم يَشرعه الله تعالى وهو الشرك والابتداع في الدين، (وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ) يعني: ولولا قضاء الله بأنه لا يُعجِّل لهم العذاب في الدنيا: (لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) بتعجيل العذاب لهم (وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) في نار جهنم.

- الآية 22، والآية 23: (تَرَى الظَّالِمِينَ) يوم القيامة (مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا): أي خائفين من عاقبة ما كسبوه في الدنيا من أعمالٍ خبيثة، (وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ) يعني: وعقاب تلك الأعمال نازلٌ بهم لا مَحالة، (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ) أي في بساتين الجنات وعيونها الجارية (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) ممّا تشتهيه نفوسهم (ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ

الْكَبِيرُ) الذي لا يُوصَف، ولا تستطيع العقول أن تتخيله لعظمته، (ذَلِكَ) النعيم المقيم هو (الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ) به (عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) (قُلْ) أيها الرسول لمُشركي قريش: (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا): يعني لا أسألكم شيئاً من أموالكم مقابل ما أدعوكم إليه من الحق (إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) يعني ولكني أطلب منكم أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم (بأنْ تراعوا ما بيني وبينكم من القرابة)، فلا تؤذوني، بل تَحموني من إيذاء الناس حتى أُبَلِّغ رسالة ربي، (وذلك لأنه لم تكن هناك "عائلة" من عائلات قريش، إلا وكانَ فيها قرابة للرسول صلى الله عليه وسلم).

(وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) يعني: ومن يَكتسب حسنةً نُضاعفها له بعَشر أمثالها، إلى ما شاء الله من الزيادة (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ) لذنوب التائبين (شَكُورٌ) لأعمالهم، إذ يُثيبهم على القليل بالكثير.

♦ ولَعَلَّ الله تعالى ذَكَرَ صفة "الغفور" مع عباده المحسنين، للإشارة إلى ترغيب المُسيئين في الاستغفار والتوبة حتى لا يَقنطوا من رحمة ربهم فيَغفر لهم إذا تابوا ونَدموا.

- الآية 24: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى) محمدٌ (عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) فجاء بهذا القرآن من عند نفسه؟! (فكيف يقولونَ ذلك وهم يعرفونَ صدقه، ويعلمونَ أنه بَشَرٌ مثلهم، فلماذا إذاً لم يستطيعوا الإتيان بمثل ما جاءهم به وهُم أبلغ البشر؟!)، (فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ) أي يطبع على قلبك أيها الرسول لو افتريتَ على الله كَذباً، فيُنسيك القرآن ويَمنعك من النطق به، ولكنّ القرآن هو وَحْيُ الله إليك، ثم ذَكَرَ سبحانه الدليل على ذلك بقوله: (وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) أي بآيات القرآن التي لا تتبدل ولا تتغيَّر، وبوعده الصادق الذي لا يتخلف، (وقد مَحَا اللهُ الباطلَ وأحَقَّ الحق بالقرآن، فلم يَبْقَ مُشركٌ واحد في أرض الجزيرة العربية قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو كان القرآنُ مُفترَى كما يزعمون: ما مَحا باطلاً ولا أحَقّ حقاً)، (إِنَّهُ) سبحانه (عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أي عليمٌ بما في قلوب عباده، لا يَخفى عليه شيءٌ منها (ومن ذلك: علمه تعالى بما في صدور هؤلاء المُكَذِّبين من الكِبر والعناد والافتراء، وبما في صَدر رسوله محمد من الحق).

- الآية 25: (وَهُوَ) سبحانه (الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) (إذا تابوا إليه بصدق، وندموا على ما فعلوا، وعزموا على عدم العودة إلى ما يُغضب ربهم)، (وَيَعْفُو) سبحانه (عَنِ السَّيِّئَاتِ) أي يعفو عن سيئات التائبين، فلا يؤاخذهم بها (وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) – في السر والعَلَن – وسيُجازيكم أيها الناس على أعمالكم.

- الآية 26: (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) لِمَا دَعَاهم إليه ربهم وينقادون له، (وَيَزِيدُهُمْ) سبحانه (مِنْ فَضْلِهِ) بتثبيتهم، وتوفيقهم إلى المزيد من الأعمال الصالحة، وبمضاعفة أجْرهم وثوابهم، (وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ).

****

3. الربع الأخير من سورة الشورى

– الآية 27، والآية 28: (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لعِبَادِه) يعني لو وَسَّعَ سبحانه الرزق لجميع عباده: (لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) أي لَطَغَوا في الأرض جميعاً (فيَتكبر بعضهم على بعض، ويَظلم بعضهم بعضاً)، ولأفسدوا في الأرض بالمعاصي وأنواع الفساد (وَلَكِنْ يُنَزِّلُ) أرزاقهم (بِقَدَرٍ) أي بمقدارٍ مُعيّن (مَا يَشَاءُ) (بحسب حكمته البالغة) (إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ) بما يُصلحهم, (بَصِيرٌ) بأحوالهم، (وَهُوَ) وحده (الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ) أي يُنَزِّل المطر من السماء، فيُغيثُ الناسَ به (مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا): أي من بعد ما يَئسوا من نزوله، ومن بعد ما يَئسوا من آلهتهم العاجزة التي لا تنفع ولا تضر، (وَيَنْشُرُ) سبحانه (رَحْمَتَهُ) في خلقه, (والمقصود بالرحمة هنا هي بركات المطر ومنافعه، إذ تحيا به البلاد والعباد، وتحصل به سعة الرزق والرخاء، لأن المطر تحيا به مزارع الناس، فيتوفر لهم غذاؤهم وتجارتهم) (وَهُوَ) سبحانه (الْوَلِيُّ) الذي يتولى عباده بإحسانه وفضله, (الْحَمِيدُ) الذي يَستحق الحمد والثناء في كل حال، لكَثرة نِعَمه على مخلوقاته.

– الآية 29: (وَمِنْ آيَاتِه) الدالة على وجوب توحيده وقدرته على البعث: (خَلْقُ السَّمَاوَاتِ) وارتفاعها بغير عمد، (وَالْأَرْضِ) مع اتساعها وامتدادها (وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ) يعني: وما نَشَرَ في السماوات والأرض من دابةٍ تدب على الأرض، أو مَلَك يَسبح في السماء أو يَمشي في طُرُقاتها، (وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) يعني: وهو سبحانه قديرٌ على جَمْع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة وقتما يشاء, (بل إنّ ذلك أهون عليه من خلق السماوات والأرض).

– الآية 30، والآية 31: (وَمَا أَصَابَكُمْ) أيها الناس (مِنْ مُصِيبَةٍ) – في أنفسكم أو ولدكم أو مالكم – (فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) من الذنوب، (فما من مصيبةٍ تنزل بالإنسان إلا بذنبٍ ارتكبه، إلا لو تابَ من هذا الذنب، وقَبِلَ اللهُ توبته)، (وَيَعْفُو) ربكم (عَنْ كَثِيرٍ) من السيئات، فلا يؤاخذكم بها تكَرُّماً منه وإحساناً، فله الحمد والمِنّة، (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) يعني: ولن تُعجزوا ربكم أيها العُصاة، إذا ظننتم أنكم ستهربون من عذابه (فِي الْأَرْضِ) (فأينما تكونوا يأتِ بكم سبحانه) (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ) يَنفعكم ويَتولى أموركم، (وَلَا نَصِيرٍ) يُنقذكم من عذاب ربكم.

– الآية 32، والآية 33، والآية 34: (وَمِنْ آيَاتِه) الدالة على قدرته وعنايته بمصالح خلقه: (الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) (والجَوار هي السفن الجارية، والأعلام هي الجبال)، والمعنى: إنّ من آيات الله تعالى هذه السفن العظيمة التي تجري في البحر مثل الجبال، وتسخير الله تعالى للبحر أن يحملها رغم ثِقَلها لمنافع العباد، ومن مَظاهر قدرته أيضاً أنه (إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ) أي يُوقف هبوبها (فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ) أي: فتظل السفن ساكناتٍ على ظهر البحر لا تجري، (إِنَّ فِي ذَلِكَ) أي في جَرْي هذه السفن ووقوفها في البحر بقدرة الله: (لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ) أي صبور عند الشدائد، (شَكُورٍ) عند النعم (فهذا هو الذين ينتفع بآيات ربه)، (أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا): يعني وإن يشأ سبحانه يجعل الرياح عواصف، فيُهلك السفن بإغراقها، بسبب ذنوب رُكّابها، (وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ) من الذنوب فلا يُعاقب عليها.

– الآية 35: (وَيَعْلَمَ) سبحانه (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا) وهم المُشركون المُكَذِّبون بآيات الله، عندما تشتد العواصف وتضطرب بهم السفن ويخافون الغرق (مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ) أي ليس لهم مَهرب ولا مَنجى من الغرق، فعندئذٍ يلجأون إلى الله وحده بالدعاء والاستغاثة، ويَنسون آلهتهم الباطلة.

- من الآية 36 إلى الآية 39: (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ) - من الأموال والأولاد وغير ذلك - (فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا): يعني فإنما هو متاعٌ تتمتعون به في هذه الحياة الدنيا، ثم يزول سريعاً، أو تموتون عنه وتتركونه لغيركم، (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ) من النعيم هو (خَيْرٌ) من مُتَع الدنيا الفانية التي تَصحبها المُنَغِّصات (وَأَبْقَى) منها، حيثُ لا انقطاعَ لها، ولا مُفسداً لِمُتعتها، وهذا النعيم قد أعَدَّه سبحانه (لِلَّذِينَ آمَنُوا) بالله ورُسُله (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) أي يعتمدون عليه وحده في كل أمورهم (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ): أي يَجتنبون كبائر ما نهى الله عنه (كالشرك والقتل والظلم وأكْل الحرام وعقوق الوالدين)، وما قَبُح من أنواع المعاصي (كالزنى واللواط) (وَإِذَا مَا غَضِبُوا) على مَن أساء إليهم: (هُمْ يَغْفِرُونَ) أي يَغفرون له هذه الإساءة، ويتجاوزون عن عقوبته؛ طلبًا لعفو الله وجنته، (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ) حين دعاهم إلى توحيده وطاعته (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) على أتمِّ وجوهها - وفي أوقاتها - بخشوعٍ واطمئنان، (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) يعني: وهُم الذين إذا أرادوا أمرًا يُهمُّهم في حياتهم: تشاوروا فيما بينهم، وأخذوا بما يُلهمهم ربهم بالصواب فيه، (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) من أنواع الأموال (يُنْفِقُونَ) أي يُخرِجون الزكاة المفروضة والصدقات المُستحبّة (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ): يعني إذا أصابهم الظلم: (هُمْ يَنْتَصِرُونَ) أي يَنتصرون ممَّن ظلمهم بمثل ما اعتدى عليهم, (وإنْ صبروا على الظلم: فجزاؤهم عظيمٌ عند ربهم في جنته، كما سيأتي في الآية التالية).

- من الآية 40 إلى الآية 43: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) يعني وجزاءُ سيئة المُسيء: عقوبته بسيئةٍ مثلها من غير زيادة, (فَمَنْ عَفَا) عن المُسيء, وتَرَكَ عقابه - رغم قدرته على مُعاقبته - (وَأَصْلَحَ) يعني أصلح العلاقة التي تربطه بأخيه، فأعاد المَوَدَّة بينهما - رافضاً الانتصار لنفسه، طالباً بذلك رضا الله وعفوه -: (فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) يعني: فأَجْرُ عفوه على الله تعالى، وهو خيرٌ له من شفاء صدره بعقوبة أخيه، (واعلم أنّ عدم ذِكْر هذا الأجر دليلٌ على عِظَمه ومضاعفته لصاحبه) (إِنَّهُ) سبحانه (لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) الذين يبدؤون بالاعتداء على الناس، ويُسيئون إليهم.

♦ وقد قال بعض العلماء في قوله تعالى: (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ) أنه يُشترَط أن تكون نتيجة هذا العفو: إصلاحٌ، بمعنى أنك إذا وجدتَ هذا الشخص - الذي قد عفوتَ عنه - يَتمادى في الإساءة والإيذاء، فهذا لا ينفع معه العفو، لأنه يظن بذلك أنك ضعيف، ولا يَفهم أنك تعفو عنه من أجل أن يعفو الله عنك، وأمّا الذي ينفع معه العفو: فهو الذي - إذا عفوتَ عنه - يتوقف عن ظلمه وإساءته، ويَعتبر أنّ عفوك هذا جَميلٌ يَحمله لك في رقبته إلى يوم القيامة.

(وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ) يعني مَن انتصر ممَّن ظلمه - بعد أن وقع عليه الظلم منه - وليس بمجرد الظن والتوقع بأنه سيَظلمه: (فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ): أي ليس عليهم من طريقٍ إلى مؤاخذتهم ومعاقبتهم، (إِنَّمَا السَّبِيلُ) يعني إنما الطريق إلى المعاقبة، (والمعنى: إنما الإثم والعقاب) (عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ) أي يبدؤون بظلمهم والاعتداء عليهم (وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ): أي يتجاوزون الحلال إلى الحرام، فيفعلون ما لم يأذن الله لهم فيه، ويفسدون في الأرض (أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) في نار جهنم، (وَلَمَنْ صَبَرَ) على الأذى، فلم ينتصر لنفسه - (وَغَفَرَ) أي تجاوز عمن أساء إليه، وقابل الإساءة بالعفو والصفح: فـ (إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ): يعني إنّ الصبر والتجاوز عن المُسيء من الأمور التي ينبغي الحرص عليها، والعزم على التمسك بها، لأن الله تعالى قد أعَدَّ ثوابًا جزيلاً للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس (وهي مغفرة الله لذنوبهم،

والتمتع بأصناف النعيم في جنته)، (واعلم أنَّ اللام التي في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ﴾، والتي في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾، تُسَمَّى: (لام التوكيد)).

- الآية 44، والآية 45، والآية 46: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني: ومَن يُضلله الله عن طريق الحق - بسبب إصراره وعناده - فليس هناك أحدٌ يستطيع أن يتولى هدايته، ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ﴾ لربهم: ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾: يعني هل لنا من طريقٍ إلى الرجوع إلى الدنيا؛ لنتوب ونعمل بطاعتك؟ فلا يُجابون إلى ذلك، ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ أي يُعْرَضون على النار خاضعينَ ذليلين ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾: أي ينظرون إلى النار بجُزءٍ من عيونهم (يعني يَختلسون النظر إليها لشدة خوفهم منها)، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ وهُم في الجنة - عندما رأوا ما نزل بالكافرينَ من خُسران: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ حقًا هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي حَرَموا أنفسهم وأهلِيهم من دخول الجنة، لأنهم أضَلُّوهم عن الدين الحق، (وقد قال بعض المُفسِّرين في معنى خُسران الأهل يوم القيامة: هو حِرمانهم من الحور العين، اللاتي كُنّ لهم في الجنة، لو أنهم آمنوا بالحق واتقوا ربهم) ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ لا ينقطع عنهم في نار جهنم, ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: يعني لم يكن لهم أعوان ونُصَراء يَمنعون عنهم عذابَ الله، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ يعني ومَن يُضلله الله بسبب كُفره وظُلمه: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يعني فما له من طريقٍ يصل به إلى الحق في الدنيا، ولا إلى الجنة في الآخرة.

- الآية 47، والآية 48: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ أيها الناس بالإيمان والتوبة والطاعة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، الذي ﴿لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا يقدر أحد على ردِّه، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ﴾ يُنجِّيكم من العذاب ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي ليس لكم حينئذٍ إنكارٌ لذنوبكم، لأنها قد جُمِعَتْ لكم في كتابٍ واحد، لم يترك صغيرة من ذنوبكم ولا كبيرة إلا أحصاها، (وفي هذا إرشاد إلى المسارعة إلى كل عملٍ صالح, لأنّ العبد لا يدري ما يَعرض له من مَشاغل)، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان، فلا تحزن أيها الرسول على إعراضهم ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي لستَ حافظًا لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ يعني ما عليك إلا البلاغ، وقد بلَّغتهم، ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ - من مالٍ وصحة وغير ذلك: ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي مصيبة - من فقر ومرض وغير ذلك - ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي: ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي جَحود ساخط، إذ يُعدِّد المصائب, ويَنسى النعم.

- الآية 49، والآية 50: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ - خَلقاً ومُلكاً وتصرفًا وتدبيراً - ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا﴾: أي يُعطي لمن يشاء إناثًا (لا ذكورَ معهنّ)، ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أي ذكوراً (لا إناثَ معهم)، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾: أي يُعطي لمن يشاء الزوجين - أي النوعين -: الذكور والإناث, ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أي لم يُعطه الله القدرة على الإنجاب, ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يَخْلُق, ﴿قَدِيرٌ﴾ على خَلْق ما يشاء، (فالواجب أن يُسلِّم العبد لربه فيما أعطاه له، ولا يَعترض على قضاءه، لأنه سبحانه يُعطي لحكمة ويَمنع لحكمة، وهذه الحِكَم لا تدركها عقول العباد).

- الآية 51: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ (وذلك بأن يُعلِمَه بطريقٍ سريع خَفِيّ، في يَقَظَة أو مَنام، فيَفهم عن الله تعالى ما ألقاه في قلبه)، ﴿أَوْ﴾ يكلمه سبحانه ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ (كما كلَّم سبحانه موسى ومحمد عليهما الصلاة

والسلام), (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ) (كما أنزل جبريل عليه السلام إلى الرُسُل), (إِنَّهُ) سبحانه (عَلِيٌّ) بذاته وقدره وقهره, (حَكِيمٌ) في تدبير أمور خلقه، (وفي الآية إثباتٌ لصفة الكلام لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله وكماله).

– الآية 52، والآية 53: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا) يعني: وكما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أيها النبي، فكذلك أوحينا إليك قرآنًا من عندنا تحيا به القلوب والأرواح، (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ): يعني ما كنتَ تعلم قبل ذلك ما هي الكُتُب السابقة ولا الشرائع الإلهية ولا الإيمان (الذي هو قولٌ واعتقادٌ وعمل) (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ) أي جعلنا القرآن (نُورًا) (يعني فيه نورٌ يَكشف الظُلُمات، بِبَيَان الحُجَج وكَشْف الحقائق) (نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) (وَإِنَّكَ – أيها الرسول – (لَتَهْدِي) أي تَدُلُّ الناس وتُرْشِدُهم (إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أي طريقٍ مستقيم لا انحراف فيه، وهو الإسلام، الذي هو (صِرَاطِ اللَّهِ) أي الطريق المُوصل إلى رضا الله (الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) (لا شريكَ له في ذلك) (أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) أي يَرجع مَصير الخلائق إلى الله وحده يوم القيامة، فيُجازي كُلاًّ بما عمل.